كلية الآداب واللغات

قسم الفنون

السنة الثانية ليسانس، دراسات سينمائية/ السداسي الرابع

مقياس: التركيب السينمائي

المحاضرة رقم 04 بعنوان:

"المنظور التعبيري للمونتاج السينمائي عند بيلا بالاش"

يُعدّ بيلا بالاش أحد أبرز المنظّرين الأوائل للسينما في النصف الأول من القرن العشرين، وقد أسهمت كتاباته، ولا سيما في مؤلفاته :الإنسان المرئي (1924)، روح الفيلم (1930)، ونظرية الفيلم (1948)، في بلورة فهم عميق للطبيعة الجمالية والفكرية للفن السينمائي. وقد منح بالاش المونتاج مكانة مركزية ضمن ما اعتبره الأركان الأساسية للغة السينمائية، إلى جانب اللقطة القريبة والتأطير، مؤكدا أن المونتاج هو العملية الإبداعية الحاسمة التي تمنح الفيلم معناه المتكامل.

1. المونتاج كمصدر للمعنى وبناء الدلالة:

ينطلق بالاش من مسلمة جوهرية مفادها أن المعنى في السينما لا يتولد من اللقطة المفردة، بل من علاقتها باللقطات الأخرى .فاللقطة، مهما كانت مكتفية بصريا، تظل ناقصة الدلالة إذا عُزلت عن سياقها التركيبي. ويشبّه بالاش ذلك بالكلمة داخل الجملة أو النغمة داخل اللحن، إذ لا يتحدد معناهما إلا ضمن البنية الكلية التي تنتظمهما.

يرى بالاش أن كل صورة سينمائية مشحونة بما يسميه "نزعة نحو المعنى(Bedeutungstendenz) "، وهي طاقة كامنة لا تتحقق فعليا إلا عندما تتصل الصورة بصورة أخرى. هذا الاتصال يولّد ما يصفه بـ "تيار من العلاقات" يربط بين الصور لا بوصفها مواد ملصقة تقنيا، بل بوصفها وحدات دلالية تدخل في شبكة من الترابطات الذهنية داخل وعي المشاهد.

وعليه، فالمونتاج ليس مجرد تجميع ميكانيكي للقطات، بل هو تنظيم مقصود يهدف إلى إنتاج تأثير جمالي وفكري محدد .إنه العمل الدقيق الأخير الذي يُخرج الفيلم من حيز التسجيل الآلي للواقع إلى حيز الفن، حيث تتحول الصور إلى خطاب بصري ذي بنية ومعنى.

2. التفسير الحتمي وتوجيه التأويل:

من أهم إسهامات بالاش تأكيده على فكرة "التفسير الذي لا مفر منه". فالمشاهد، في نظره، لا يتلقى الصور بشكل سلبي، بل ينخرط في عملية تأويل مستمرة، مفترضا وجود قصدية إبداعية وراء ترتيب اللقطات.

حتى لو وُضعت لقطات عشوائية بلا رابط ظاهر، فإن العقل البشري -بحكم حاجته الفطرية إلى الربط بين الأشياء- يسعى إلى إيجاد علاقة أو عاطفة أو معنى يجمع بينها. ومن ثمّ، فالمونتاج يخلق توترا دلاليا كامنا في كل لقطة، لا يُحلّ إلا بظهور اللقطة التالية.

هذا التوتر يشبه، في وصف بالاش، طاقة كهربائية تتولد من اتصال الأجزاء بعضها ببعض. فالمعنى لا يسكن في الصورة وحدها، بل في الفجوة التي تفصلها عن الصورة التالية، وفي العلاقة التي يقيمها المتلقي بينهما. وهنا تتجلى الطبيعة التعبيرية للمونتاج: إنه يوجّه الإدراك ويقود التأويل دون أن يصرّح به لفظيا.

3. المونتاج كمعمار متحرك للزمن:

يصف بالاش المونتاج بأنه "المعمار المتحرك لصور الفيلم"، أي أنه البنية التي تنظّم الصور في الزمن لا في المكان. فالتصوير يلتقط لحظات مكانية، أما المونتاج فيعيد تشكيلها ضمن إيقاع زمني جديد.

من خلال طول اللقطات أو قصرها، وطريقة الانتقال بينها، يخلق المونتاج الإيقاع العام للفيلم ويحدد سرعته ونبرته الدرامية. كما يرى بالاش أن زمن الفيلم ذاته هو "وهم" يخلقه المونتاج، إذ يمكن لانتقال مفاجئ إلى مكان بعيد أن يمنح الإحساس بمرور زمن أطول، حتى لو لم يُعرض ذلك صراحة.

بهذا المعنى، يصبح المونتاج أداة لإعادة تشكيل التجربة الزمنية، وتحويل الأحداث إلى بناء درامي متماسك يخضع لمنطق فني لا لمنطق الزمن الواقعي.

4. أنواع المونتاج و أثرها النفسي:

يميز بالاش بين أنماط متعددة من المونتاج، لكل منها أثره في وعي المشاهد، وهي ثمان أنواع:

- المونتاج الأيديولوجي: خالق الفكرة.
- مونتاج قائم على التورية: لقطات للآلات ولوجوه البحارة في فيلم المدرعة بوتومكين.
- المونتاج الشاعري: ذوبان الثلوج في فيلم الأم سنة 1926 للمخرج Vsevolod Pudovkin.
- المونتاج المجازي: لقطات البحر في فيلم ليلة القديس سيلفستر سنة 1923 للمخرج Lupu Pick.
- المونتاج الذهني: التمثال الذي يعود على قاعدته في فيلم أكتوبر.
- المونتاج الايقاعي: موسيقى أو زخرفي.
- المونتاج الصريح: تعارض الأشكال البصرية.
- المونتاج الذاتي: الكاميرا-الممثل.

في هذا الإطار، يمتلك المونتاج قدرة سياسية وثقافية؛ إذ يمكنه إيصال رسائل فكرية عميقة دون اللجوء إلى اللغة اللفظية، معتمدا على قوة الصورة وتركيبها.

5. المونتاج كلغة بصرية وثقافة جديدة:

يرى بالاش أن المونتاج يسهم في تحرير الإنسان من هيمنة الكلمات والمفاهيم المجردة، ويعيد الاعتبار

إلى "اللغة الجسدية" والإيماءة والتعبير البصري. فالسينما، من خلال المونتاج، تصبح فنا شعبيا قادرا على تجاوز حواجز اللغة وتوحيد الجماهير عبر تجربة بصرية مشتركة.

كما أن ظهور الصوت واللون فرض أبعادا جديدة على المونتاج؛ فالكلمة تحمل إيقاعا واقعيا لا يمكن تغييره بسهولة، ما يستدعي تنسيقا أدق بين الصورة والصوت. أما اللون، فأصبح عنصرا دلاليا إضافيا يدخل في علاقات تناغم أو تضاد تؤثر في العاطفة والإيحاء.

وهكذا يتحول المونتاج إلى أداة شاملة تتحكم في الإيقاع، والزمن، والصوت، واللون، وتؤسس لنسق تعبيري متكامل.

وعليه، يُفضي المنظور التعبيري للمونتاج عند بيلا بالاش إلى نتيجة مركزية مفادها أن المونتاج هو جوهر الفن السينمائي، لأنه الأداة التي تحول اللقطات المنفردة إلى لغة بصرية قادرة على إنتاج المعنى وتوجيه التأويل وإعادة تشكيل الزمن.

المكتبة البيبليوغرافية:

- فن المونتاج السينمائي، كاريل رايس، تر: أحمد الحضري
- بيلا بالاش، نظرية السينما، تر: أحمد الحضري
- L'art des yeux ouverts " : le cinéma, avènement d'une nouvelle culture dans les écrits de Béla Balázs, Marie Campigotto, Thèse de doctorat.